

المحاضرة الثالثة: الممالك البربرية

➤ الأهداف العامة للدرس:

- الإلمام بالمراحل التاريخية العامة التي سبقت ظهور الممالك البربرية .
- معرفة أولية بالبيئة الجغرافية للمنطقة المغاربية ودورها في نشوء الكيانات السياسية.
- إدراك دور التفاعلات بين السكان الأصليين (الأمازيغ) والوافدين (الفينيقيين) في تشكل الهياكل الاجتماعية والسياسية.
- التعرف على المفهوم العام للدولة والمملكة في العصور القديمة.

➤ المكتسبات القبلية:

- التعرف على أهم الممالك البربرية التي نشأت في الجزائر مثل: نوميديا، موريثانيا القيصرية، وموريثانيا الطنجية.
- تحديد الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي ساعدت على قيام تلك الممالك.
- إبراز الدور التاريخي للقادة البربر مثل ماسينيسا ويوغرطة في بناء الكيان السياسي المحلي.
- تحليل طبيعة العلاقات بين الممالك البربرية والقوى الأجنبية، خاصة روما وقرطاج.
- تقييم أثر هذه الممالك في تكوين الشخصية الوطنية الجزائرية عبر التاريخ.
- استخلاص الدروس التاريخية من التجربة السياسية البربرية في الجزائر القديمة.

د. بن عتو رضا

تاريخ الجزائر العام

1. إرهاصات التكوين السياسي للممالك البربرية في الجزائر القديمة قبل القرن الثالث قبل الميلاد:

يُعدّ من الصعوبة بمكان الحديث عن وجود كيان سياسي منظم في بلاد المغرب القديم قبل القرن الثالث قبل الميلاد، ذلك أنّ المصادر القديمة — الإغريقية واللاتينية منها على وجه الخصوص — لم تُقدّم سوى إشارات عابرة عن المنطقة، ما خلق فراغًا واضحًا في كتابة تاريخها القديم، وأثار تساؤلات عدّة حول أسباب غياب أو تغييب هذا التاريخ في المدونات الكلاسيكية.

ويلاحظ أنّ أغلب ما ورد عن بلاد المغرب في تلك النصوص ارتبط بسياقات خارجية، خاصة ما كان على علاقة مباشرة بالصراعات الكبرى في حوض البحر الأبيض المتوسط، مثل المواجهات الإغريقية-القرطاجية منذ القرن السادس قبل الميلاد، أو الحروب البونية (الرومانية-القرطاجية) التي امتدت بين سنتي 264 و146 ق.م، لا سيما الحرب البونية الثانية (218-204 ق.م) التي شكلت نقطة تحوّل في ميزان القوى ومهدت لبروز النفوذ الروماني في المنطقة.

أ. أسباب ضعف الإشارات التاريخية لبلاد المغرب القديم:

يمكن تفسير تجاهل الكتّاب الإغريق والرومان لتاريخ بلاد المغرب بعدّة عوامل متكاملة، من أبرزها: الطابع المركزي للأحداث السياسية والعسكرية في المتوسط: فقد ركّز المؤرخون على القوى المتنازعة حول النفوذ البحري والتجاري، ولم يولوا اهتمامًا إلا بما يتصل مباشرة بقرطاجة أو روما أو المدن الإغريقية. العائق اللغوي والثقافي: جهل الكتّاب القدامى بلغة السكان المحليين وبنيتهم الاجتماعية جعلهم يعزفون عن تناول شؤونهم تفصيلًا.

تدمير قرطاجة سنة 146 ق.م: إذ ترتّب على ذلك ضياع جزء كبير من الأرشيفات والوثائق والمكتبات القرطاجية، التي كانت يمكن أن تُقدّم لنا مادة تاريخية قيّمة حول شمال إفريقيا قبل الاحتلال الروماني.

ب. بواكير الظهور السياسي في المنطقة المغاربية:

تُعدّ أول إشارة واضحة إلى الحياة السياسية في بلاد المغرب تلك التي رافقت الوجود الفينيقي، إذ تشير الروايات القديمة إلى اتفاق أبرم بين الأميرة الفينيقية أليسا (ديدون) وحاكم محلي يُدعى هيرباس، يقضي بأن تدفع أليسا ضريبة سنوية مقابل السماح لها ببناء مدينة قرطاجة سنة 814 ق.م. يثير هذا المعطى سؤالًا جوهريًا حول طبيعة سلطة هيرباس: هل كان ملكًا محليًا؟ أم زعيمًا قبليًا؟ أم ممثلًا لسلطة سياسية أوسع في المنطقة؟

ويبدو أن قرطاجة واصلت أداء هذه الضريبة إلى الملوك أو الزعماء المحليين حتى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، حين شعرت بالقوة العسكرية والاقتصادية التي حوّلت لها التملص من تلك الالتزامات. ويُرجّح أن تغيّر الموقف القرطاجي هذا هو ما دفع الملك النوميدي إيلماس إلى التحالف مع القائد الإغريقي أغاثو كليس، حاكم سيراقوسة، الذي شنّ هجمات ضد قرطاجة على السواحل الإفريقية.

د. بن عتو رضا

تاريخ الجزائر العام

إذا صحّ هذا التحليل، فيمكن القول إنّ المناطق المغاربية المحاذية لقرطاجة عرفت مع نهاية القرن الرابع قبل الميلاد بدايات تشكّل نظام حكم محلي، ربما شكّل النواة الأولى للعرش النوميدي في شطره الشرقي؛ ويُعتبر إيلماس أحد أقدم الملوك المعروفين لما يُعرف لاحقاً بقبائل الماسيل، التي أسست نوميديا الشرقية.

كما يُعزّز وجود ضريح "المدارسن" (بمنطقة باتنة حالياً) هذا الطرح، إذ تُجمع الدراسات الأثرية على أنّ تشييده تمّ ما بين أواخر القرن الرابع وبداية القرن الثالث قبل الميلاد، وأنّ القبائل الماسيلية التي استقرت في محيطه شكّلت النواة الأولى للدولة النوميديّة. ومع اكتمال شروط الدولة — من سلطة مركزية وتنظيم قبلي مستقر — انتقلت هذه القبائل إلى سيرتا، حيث ظهرت الدولة النوميديّة في شكلها الملكي المنظم.

2. الممالك البربرية:

أ. المازيسيل:

لم ترد في المصادر الكلاسيكية إشارات واضحة ومباشرة إلى القبائل المازيسيلية قبل منتصف القرن الثالث قبل الميلاد، غير أنّ تلك المرحلة شهدت بروز هذه القبائل كقوة سياسية وعسكرية فاعلة في إطار ما أصبح يُعرف لاحقاً بـ الدولة النوميديّة الغربية. وقد تزامن ظهورها مع التحولات العميقة التي عرفت المنطقة المغاربية جرّاء الصراع بين قرطاجة وروما، لاسيما خلال الحرب البونية الثانية (218-201 ق.م)، وهي المرحلة التي لمع فيها اسم الملك سَفَاقس (Siphax) بوصفه أحد أبرز الزعماء الذين أسهموا في تنظيم الكيان المازيسيلي وإبراز مكانته في الساحة السياسية للمغرب القديم.

تُعدّ مسألة تحديد الحدود الجغرافية لمملكة نوميديا الغربية من القضايا التي يصعب الجزم بها بدقة، نظراً لندرة المعطيات النصية وتغيّر الامتدادات الإقليمية تبعاً للظروف السياسية والعسكرية. ومع ذلك، يمكن — اعتماداً على ما توفر من إشارات تاريخية وجغرافية — تحديد نطاقها التقريبي على النحو الآتي:

- من الغرب: تمتد حدود المملكة من نهر ملوشة (ملوية) الذي يُشكّل الحد الطبيعي بينها وبين الأراضي الموريتانية.

- إلى الشرق: تصل حدودها إلى رأس تريتون، المعروف حالياً برأس بوقرعون بولاية سكيكدة.
- في الجنوب: تنتهي حدودها عند تخوم قبائل الجيتول، التي كانت تسيطر على المناطق الصحراوية وشبه الصحراوية جنوب الأطلس.

ويُقدّر طول الساحل المازيسيلي بحوالي 6000 ستاديوم وفق ما أورده بعض الجغرافيين الإغريق، والستاديوم وحدة قياس إغريقية تساوي تقريباً 185 متراً. وبناءً على ذلك، فإن طول الساحل المازيسيلي يعادل تقريباً 1110 كيلومتراً؛ أما العاصمة فهي سيكا، وفي وقت من الأوقات جمع الملك سيفاكس عاصمتان وهما سيكا وسيرتا في الشرق.

د. بن عتو رضا

تاريخ الجزائر العام

تجدر الإشارة إلى أنّ قبائل المازيسيل امتلكت مساحات شاسعة من الأراضي مقارنة بقبائل الماسيل، ويُعزى ذلك إلى الحروب التي خاضها الملك سيفاكس من أجل إخضاع الماسيل، في مسعاه لتوحيد نوميديا بشطريها الشرقي والغربي. وقد تمكّن، بفضل حنكته السياسية ودهائه العسكري، من توحيد صفوف المازيسيل والماسيل ضمن كيان سياسي واحد، هو المملكة النوميديّة، وذلك مع نهاية القرن الثالث قبل الميلاد.

ب. مملكة الماسيل:

على غرار القبائل المازيسيلية، يُعد من الصعب تحديد مجال ممتلكات القبائل الماسيلية بدقّة، وذلك للأسباب ذاتها، إذ لم يرد ذكرها في المصادر القديمة إلا عرضاً، كما أنّ تلك الكتابات لم تُحدّد نطاقها الجغرافي بشكل واضح، نظراً لعدم اهتمام الرومان بتوثيق الحدود الطبيعية للشعوب الخاضعة لسلطتهم؛ ومع ذلك، فإنّ استناداً إلى أماكن تركز القبائل المكوّنة للماسيل، يتّضح أنّ مجالمهم كان يمتدّ في المنطقة الشرقية من نوميديا، أي في شمال شرقي الجزائر وغرب تونس، مع استثناء الأراضي التابعة للدولة القرطاجية، وتُظهر المعطيات الجغرافية أنّ الحدود بين الممالك النوميديّة كانت تُرسم في الغالب اعتماداً على المعالم المائية الطبيعية، مثل الأودية والشطوط والسبخات، باعتبارها حدوداً ثابتة يسهل تحديدها ومراقبتها والتحكم فيها؛ وبناءً على ذلك، اعتُبر رأس تريتوم (رأس بوقرعون) والوادي الكبير (المساقة) حدّاً شرقيّاً لمجال قبائل المازيسيل، وفي الوقت نفسه معلماً لبداية الحدود الغربية لقبائل الماسيل. ومن ثمّ، يمكن القول إنّ مجال الماسيل كان محصوراً بين أراضي الدولة القرطاجية شرقاً، ومجال المازيسيل غرباً، وأراضي الجيتول جنوباً؛ وكانت عاصمتها سيرتا.

وتجدر الإشارة إلى أنّ اسم الماسيل ارتبط تاريخياً بالملك ماسينيسا، الذي سعى إلى توحيد نوميديا وإرساء دعائم دولة قوية ومستقلة، وهو الهدف نفسه الذي كان قد عمل على تحقيقه من قبله العاهل المازيسيلي سيفاكس، الذي حاول بدوره توحيد الشطرين الشرقي والغربي من نوميديا في كيان سياسي واحد، شبيه في مؤسساته وتنظيمه بالدولة القرطاجية. وقد تعاقب على حكم مملكة الماسيل عدة ملوك، اذ يعتبر الملك جايا أول ملك سهر على تأسيس النواة الأولى للدولة النوميديّة الشرقية، بينما يعتبر الملك ماسينيسا الذي حكم لمدة 56 سنة هو رابع ملك بعد والده وعمه وابن عمه أهم ملك من ملوك النوميديّة الشرقية.

د. بن عتو رضا تاريخ الجزائر العام

الصورة رقم 01: خريطة لمملكة المازيسيل ومملكة الماسيل



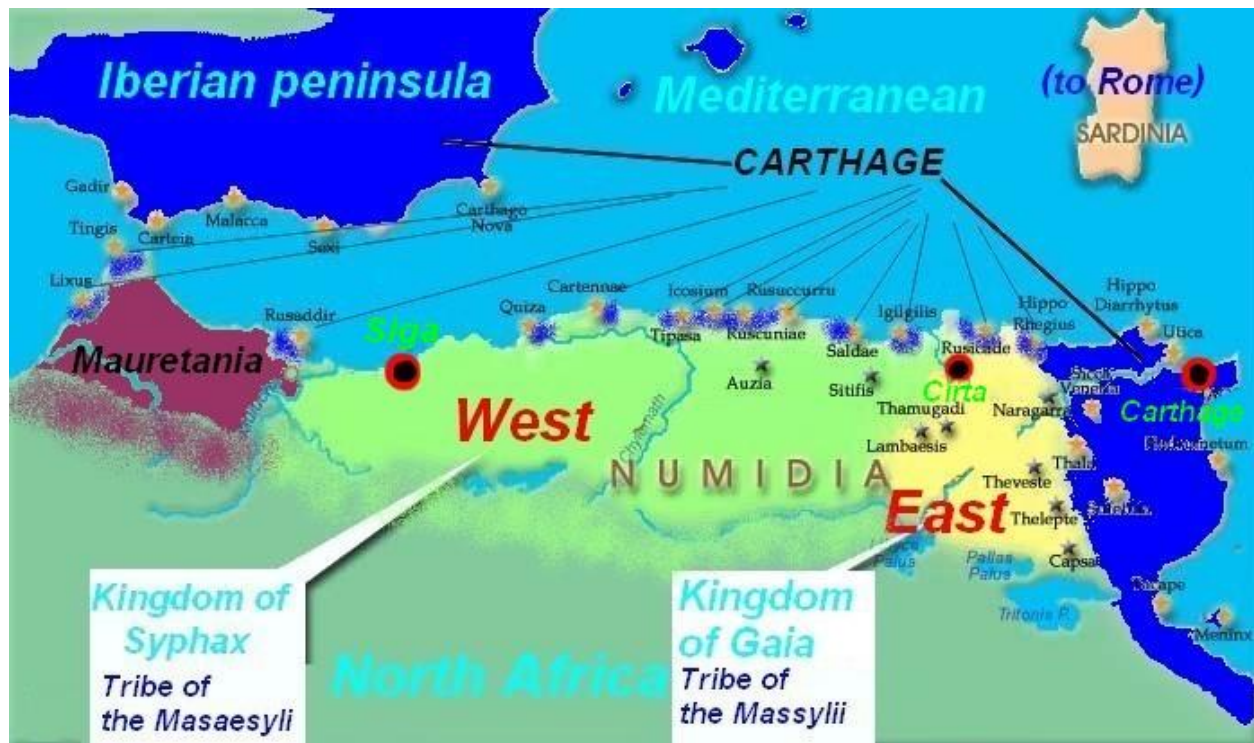
ت. المملكة المورية:

ظل الجزء الغربي من الشمال الإفريقي القديم غير معروف لدى الكتاب نظرا لطبيعته الجغرافية حيث ارتبط بالمحيط أكثر منه من البحر الأبيض المتوسط، كان مجال المملكة المورية يمتد ما بين المحيط غربا إلى وادي ملوية شرقا، وعن امتداد نفوذ المملكة المورية جنوبا، فلا يعرف حدود المملكة بالتحديد، أما عن أولى ملوك المملكة المورية فنجد إشارات عن الملك باكا.

د. بن عتو رضا
تاريخ الجزائر العام

الصورة رقم 02:

خريطة للممالك البربرية وقرطاجة



د. بن عتو رضا تاريخ الجزائر العام

3. نوميديا الموحدة:

أ. الملك سيفاكس يوحد نوميديا:

شهدت بلاد المغرب القديم خلال القرن الثالث قبل الميلاد مرحلة هامة من تاريخها السياسي، تمثلت في أول توحيد للقبائل النوميديّة، الماسيليّة منها والمازيسيّة، في مملكة واحدة تحت حكم الملك سيفاكس، أحد أبرز ملوك المازيسيل. يُعزى هذا التوحيد إلى المكانة السياسية والعسكرية التي بلغها سيفاكس خلال تلك الفترة، إذ نسج علاقات وثيقة مع قرطاجة حوالي سنة 213 ق.م، وشارك بجيوشه في حملاتها العسكرية بإسبانيا إلى جانب القوات القرطاجية. وقد توطدت هذه العلاقات أكثر بزواجه من الأميرة القرطاجية سوفونيسبة، ما منح تحالفه مع قرطاجة بعداً سياسياً واستراتيجياً واضحاً.

سعى سيفاكس من موقعه كملك قوي إلى تحقيق الاستقرار في المنطقة، وتجلى ذلك في مساعيه الدبلوماسية لعقد صلح بين سيبينون القائد الروماني وصدر بعل القائد القرطاجي خلال مؤتمر سيكا الدولي سنة 206 ق.م. ورغم فشل تلك المفاوضات، فقد برز سيفاكس في المصادر القديمة كملك إصلاحٍ وطموح، استطاع بفضل قوته العسكرية توسيع نفوذه شرقاً، والسيطرة على مدينة سيرتا، ما أدى إلى فرار منافسه ماسينيسا نحو أقصى الشرق في منطقة سرت. وبحلول سنة 205 ق.م، تمكن سيفاكس من بسط سلطته على كامل الأراضي النوميديّة، مؤسساً بذلك أول مملكة نوميديّة موحدة استمرت حتى سنة 203 ق.م، قبل أن تعرف المنطقة مجدداً صراعاً جديداً بين القوى المحلية والإقليمية.

ب. الملك ماسينيسا يوحد نوميديا:

تمّ التوحيد الثاني لمملكة نوميديا خلال عهد الملك الماسيلي ماسينيسا، الذي تمكن من إعادة بناء الدولة النوميديّة وتوحيدها تحت سلطته بعد سلسلة من الأحداث العسكرية والسياسية المعقدة؛ ففي سنة 205 ق.م، اضطر ماسينيسا إلى الانسحاب نحو منطقة سرت في أقصى شرق مملكته عقب توسّع نفوذ سيفاكس، واتخذ منها قاعدة لإعادة تنظيم صفوفه في انتظار الدعم الروماني. ومع نزول القائد لايلىوس على مقربة من هيون (عناية)، بادر ماسينيسا إلى الاتصال به، داعياً إياه إلى الإسراع في إعداد حملة عسكرية على إفريقيا للقضاء على سيفاكس الذي كان منشغلاً آنذاك بإخماد بعض الاضطرابات الداخلية.

عرفت المنطقة خلال هذه المرحلة تحالفين متقابلين: فقد ارتبط سيفاكس، ممثل مملكة نوميديا الموحدة آنذاك، بتحالف وثيق مع قرطاجة، في حين تحالف ماسينيسا مع روما سعياً لاستعادة عرش أجداده. وقد شكّلت معركة السهول الكبرى في ربيع 203 ق.م نقطة التحول الحاسمة، حيث تمكن سيبينون الروماني وماسينيسا من إلحاق هزيمة مشتركة

د. بن عتو رضا

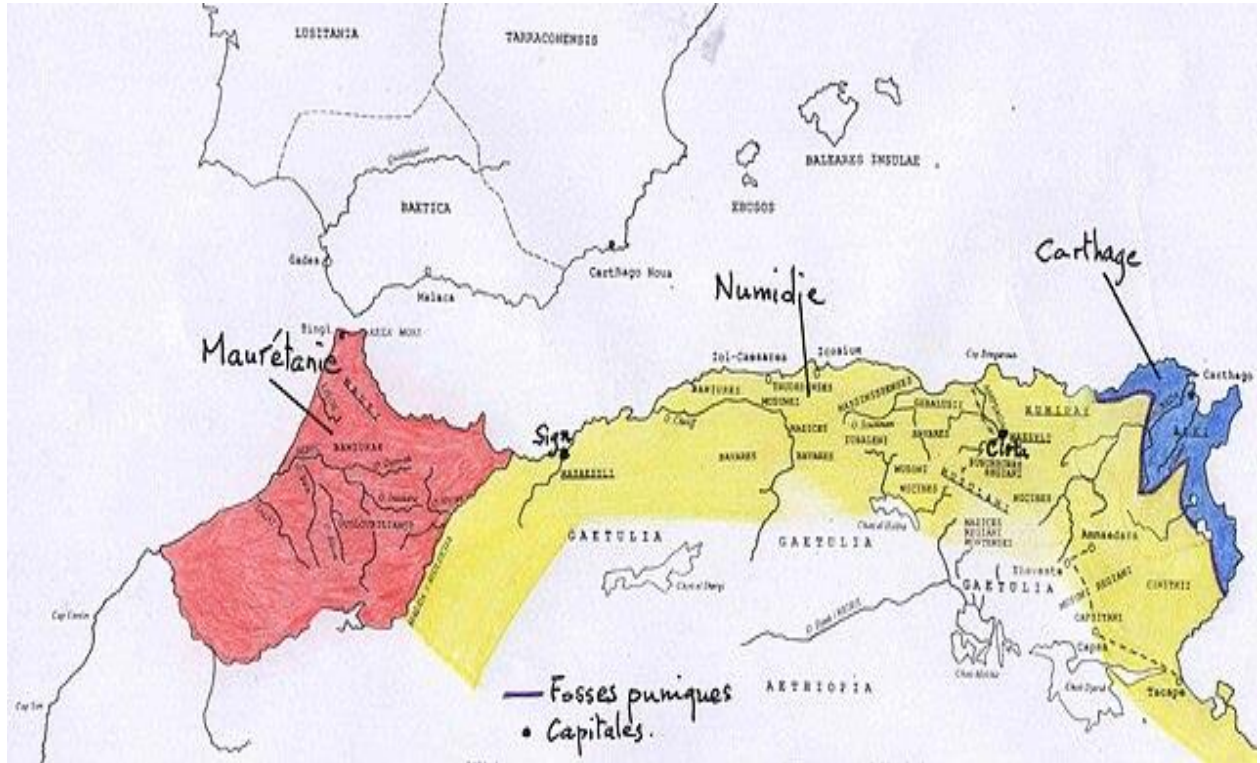
تاريخ الجزائر العام

بجيش صدر بعل وسيفاكس .وبعد فرار سيفاكس نحو سيرتا، لاحقه ماسينيسا، فاندلعت معركة سيرتا في 23 جوان 203 ق.م، انتهت بأسر سيفاكس ونقله إلى روما حيث توفي لاحقاً، وبذلك زال أبرز منافسي ماسينيسا على الحكم. لم تتوقف التحركات العسكرية عند هذا الحد، إذ واصل الجيش الروماني وماسينيسا تقدمهم في إفريقيا، فتعقبوا قوات صدر بعل بعد هزيمة السهول الكبرى، وتمكنوا من السيطرة على عدد من المدن القريبة من قرطاجة .وعلى الرغم من توقيع هدنة مؤقتة بين سيبون والقرطاجيين، إلا أن حنبعل سرعان ما نقضها، لتبدأ الاستعدادات لخوض مواجهة حاسمة مع روما.

وفي 19 أكتوبر 202 ق.م، دارت معركة زاما الفاصلة، حيث تحالفت روما مع ماسينيسا ضد حنبعل، وانتهت بانتصار التحالف الروماني-الماسيلي. ونتج عن ذلك توقيع معاهدة زاما التي نصّت على إعادة بعض المدن النوميديّة إلى ماسينيسا، مع توسيع مملكته شرقاً وغرباً، ليتمكن بذلك من توحيد المملكة النوميديّة للمرة الثانية، مؤسساً لمرحلة جديدة من الاستقرار السياسي في تاريخ نوميديا.

الصورة رقم 03:

المملكة النوميديّة الموحدة في عهد ماسينيسا. 203-149 ق.م



د. بن عتو رضا
تاريخ الجزائر العام

4. جوانب من التنظيم السياسي للممالك البربرية:

أ. نظام الحكم:

ساد النظام الملكي الوراثي في بلاد المغرب القديم، وكانت الملكية خاصة بالذكر، وكان ينتقل الملك آليا إلى الأكبر سنا في العائلة الملكية، فإذا مات الملك لا يرث الحكم أكبر أبناءه سنا بل يرثه أكبر ذكور العائلة كلها، وقد وقت استثناءات فمثلا بعد وفاة ماسينيسا خلفه أبناءه الثلاثة ميكييسا، غولوسا، ومصطنبل وانفرد ميكييسا بالحكم بعد وفاة اخوته، وواصل ميكييسا صيغة الحكم الثلاثي، حيث ترك من بعده المملكة لابنيه عزربعل وهيمبسال إضافة إلى ابن أخيه يوغرطة.

ب. العملة:

كانت قرطاجة هي السباقة في ضرب العملة في شمال إفريقيا وذلك ابتداء من القرن الخامس قبل الميلاد، ومنها اقتبس النوميديون ذلك، الذين أسسوا نظامهم النقدي ابتداء من القرن الثالث قبل الميلاد على يد الملك سيفاكس غير أن تطور النظام النقدي نسب إلى ماسينيسا.

الصورة رقم 05:

صورة لعملة في عهد الملك سيفاكس



د. بن عتو رضا
تاريخ الجزائر العام

الصورة رقم 06:

صورة لعملة في عهد الملك ماسينيسا.

